مكتبة الطفل السلسلة التاريخية

اسامة بن منقذ



مكتبة الطفل — السلسلة التاريخية

اسامة بن منقذ

تأليف : يوسف يوسف

رسوم : محي خليفة

الاخراج الفني : طلال سعيد



شَيْزَرْ قلعة المقاومة

قلعةُ (شَيزرْ) واحدةٌ من مئات الآثار التي ماتزال قائمة حتى اليوم . وقد أطلقَ عليها العربُ قديماً تسمية « عُرْفِ الديك » بسبب الشبه بينها وبين عُرف ديكٍ حقيقي . فهي تقعُ فوق تلّ الى الشمال من مدينة (حَماة) السورية . يحيطها (نهرُ العاصي) من ثلاث جهات ، ومن جهتها الرابعة حُفر خندقٌ عميقٌ في الصخر ، مما جعلها حُصناً منيعاً في وجوه الأعداء وشيزر قسمان : الأول يقعُ ضمنَ القلعة على التلّ وهو « اَلْبَلَدْ » ، والثاني قُرْبَ الجسر على نهر العاصي وهو مدينةُ الجسر . وللقلعة أبوابٌ ثلاثة .

هاجمَ الغزاةُ الصليبيون قلعةَ (شيزر) عشرات المرّات ، لكنهم فشلوا في احتلالها ، بسبب مَنَعَتها الطبيعية وحُصنها القوي من جهة ، ولزعامة (آل مُنْقذْ) الذين أحسنوا الدفاعَ عنها من جهة ثانية .

وآل مُنْقذْ عرب كِنانيّون . وهم أهلُ المجد والحَسَب والأدب والحماسة اجتمعت لهم أسبابُ القوة . فبنوا جيشاً قوياً ألحقَ بالطامعينَ الهزائم ، وجعلَ من أراضي (شيزر) قلعةً لم يَقْدر أن يدنّسها الغزاة .

اشتهرَ من بين أمراء آل مُنقذْ ، الأمير (نَصْرُ بن عَليّ بن المُقَلَّدْ)، وكان شجاعاً كريماً . قوياً على الأعداء، فتحوّلت « شَيْزَرُ » في عهده إلى قلعةٍ لمقاومة الصليبيين وقبل أن تحضره الوفاةُ أرادَ أن يستخلف اخاه (مُرْشداً) على الإمارة ، فتنازل عنها لأخيه سلطان .



بطلٌ يولد

في عام (٤٨٨ هـ) (١٠٩٥ ميلادية) رُزق (مرشد) بولد سمّاهُ أسامة ، تيمناً باسم« أسامَةُ بن زَيْدْ » . . . ذلك البطل العربي الذي كان أوّل من خرجَ في فتوحات الشام .

نشأ أسامة في كَنَفِ أبيه وعمّه الأمير سلطان ومنذ صغره ، كان يستمعُ باعجاب لأحاديث أبيه وعمّه عن المعارك ، فأحبَّ الفروسيّة والقتال .

ذاتَ يوم ، كان (أسامة) يلعبُ مع مجموعةٍ من أصدقائه ، عندما مّرت بهم مجموعةُ من فرسان (شَيزْرَ) فوق خيول تسابقُ الريح فتمنّى لحظتها لوإنه طائرٌ ليلحقَ بهم ، وهو واقفُ في مكانه ، يلاحقهم بنظراته الحزينة .

فتح (أسامة) باب حظيرة الخيول ، ودخل مسرعا،اقترب من المهر الأبيض وركبه ، وقليلا قليلا أخذت سرعة المهر تزداد ، وهو يدور في الساحة،وأسامة ممسك بخصلات شعر رقبته بقوّة ، في حين كان أبيوه يراقبه من نافذة عالية من دون ان يراه .

عندما توقّف صفّق له أبود ، رفع أُسامة رأسه الى النافذة،فأدار وجهه بقليل من الخجل ، لكن سرعان ماعاد اليه الإطمئنان بعد أن سمع أباه يقول مشجّعاً :

ـ لقد كبرت ياأسامة .

تعلَم أسامةُ ركوبَ الخيل ، والاشتراك في سباقاتها . واستطاعَ قبل الخامسة عشرة من العمر ، أنَ يُلفِتَ الأنظار إليه ، ويكون موضع ثقة عمّه الأمير سلطان .

وصار يذهبُ مع أبيه إلى مجلس عمّه،فيستمع منهما الى احاديثِ المعارِكِ وهو صامتُ ينتظر ذلك اليومَ الذي يُصبح فيه فارساً ..



كان أسامة منذ صغره يحبُّ الصّيْد وفي كثير من المرات ، اصطحبه أبوه معه ، فرأى الكثير ، وصار يطمحُ لأن يكون صياداً مثل أبيه ..

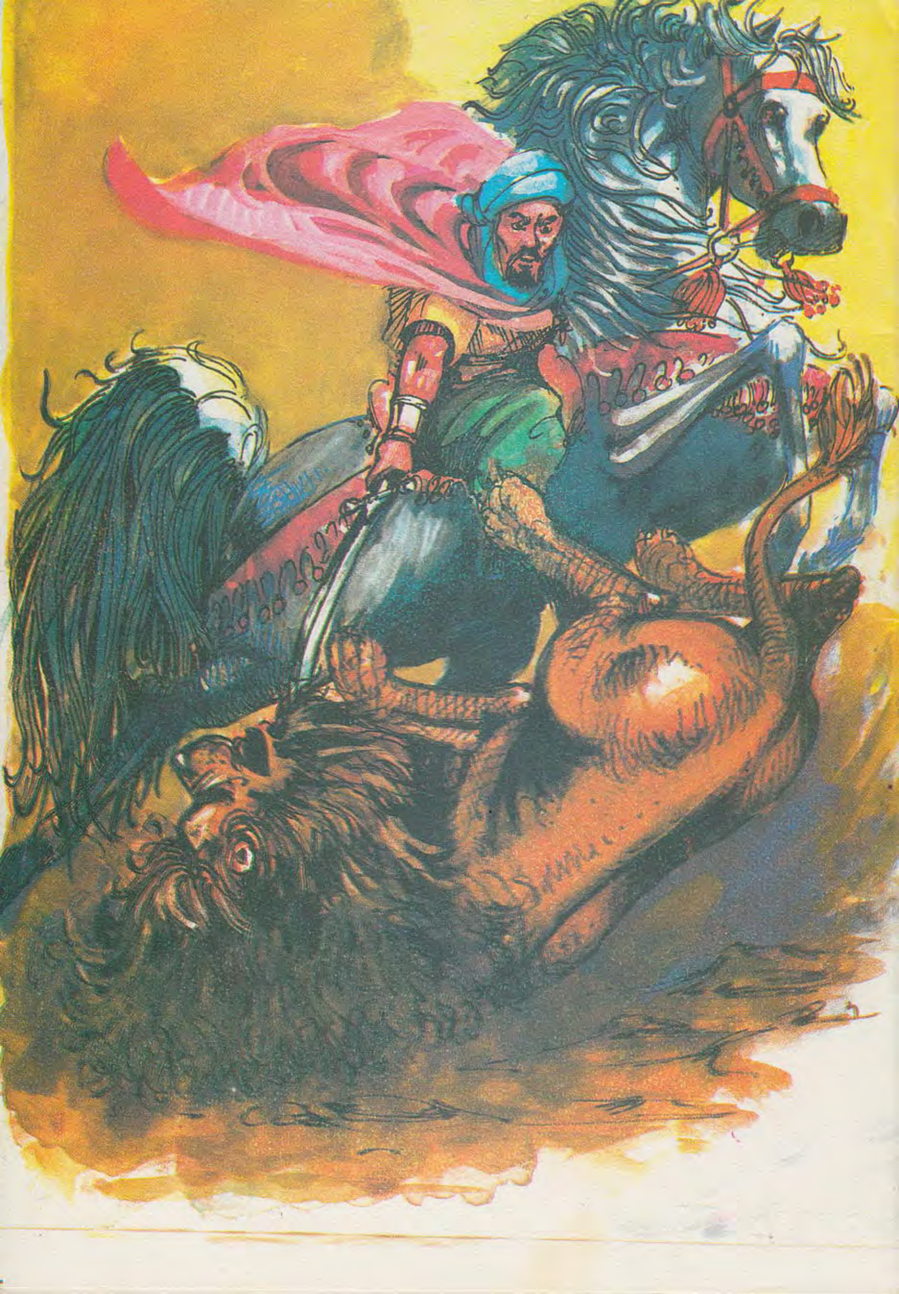
وخرج مع أخيه (بَهاء الدولة أبو المُغيث مُنْقذْ) الى دغل تكثر فيه الخنازير . وما أن أصبحا بين الأشجار .. حتى هجمَ عليهما خنزيرٌ ، فطعنه بهاء الدولة وجرحه ، لكنه استطاع الهربَ ، فاختفى بين الأشجار في الدغل ..

اندفعَ أسامة خلفَ الخنزير وهو على فرسه . فقام من بين الأشجار خنزيرٌ ضخمُ آخر ، ضربَ صدر الفرس بساقيه الأماميتين ، فوقعَ أسامة ، ووقعَ الحصان .

قام أسامة بسرعة ، وأخذَ الرّمح ، وركب فرسه ، ولحقَ بالخنزير الذي رمى نفسه في النهر . أطلق خلفه الرمح ، فأصابه ، ثمَّ نزل عن فرسه وسبحَ خلف الخنزير ليتمّ قتله في حين كان أخوه بهاء الدولة يتابعه بفرح .

أخذَ الناسُ في (شَيْزَر) يتحدثون عن (دُغْل الأسد) الذي يبث الخوف في نفوس من يدخل الدغل،بعضهم قال إن الاسدَ أقام هناك مملكةً تقطنها حيوانات كثيرة مثل الذئاب والنمور ، وآخرون قالوا إنهم لم يسمعوا غيرَ زئير الأسد . والمهم في الأمر ، أن الجميعَ امتنعوا عن الذهاب إلى الدُغل ، أو حتى مجرّد الاقتراب منه ،أما أسامة ، فإنّه كان يسخر في نفسه من كلّ تلك الأقاويل .

يقول أسامة بن مُنْقِذْ في كتابة « الإعتبارْ » ركبتُ فرسي ، وأخذتُ سيفي ولم أخبر أحداً من الناس لئلا يمنعوني من الذهاب.فلما أتيتُ الدُغْلَ ، نزلتُ عن فرسي وربطتها وشهرتُ سيفي ، فلما رآني الأسدُ هجمَ عليَّ ، فضربته بالسيفِ على رأسهِ فقتلته ، ثمَّ حملتُ رأسَه وعدتُ إلى (شيزر) ..



أسامة يصبح قائداً

بعد أن سَمِعَ الأميرُ سلطان بالأمر ، أحسنَ العطاء لابن أخيه ، وأخذ يقرّبُهُ منه لثقتهِ به أولاً ، ولشجاعته وفروسيّته ثانيا ...

استدعاه ذات يوم الى مجلسه وقال له : (كبرت ياأسامة ، ولقد قرّرْتُ أن تكون قائدَ السريّة الأولى) .

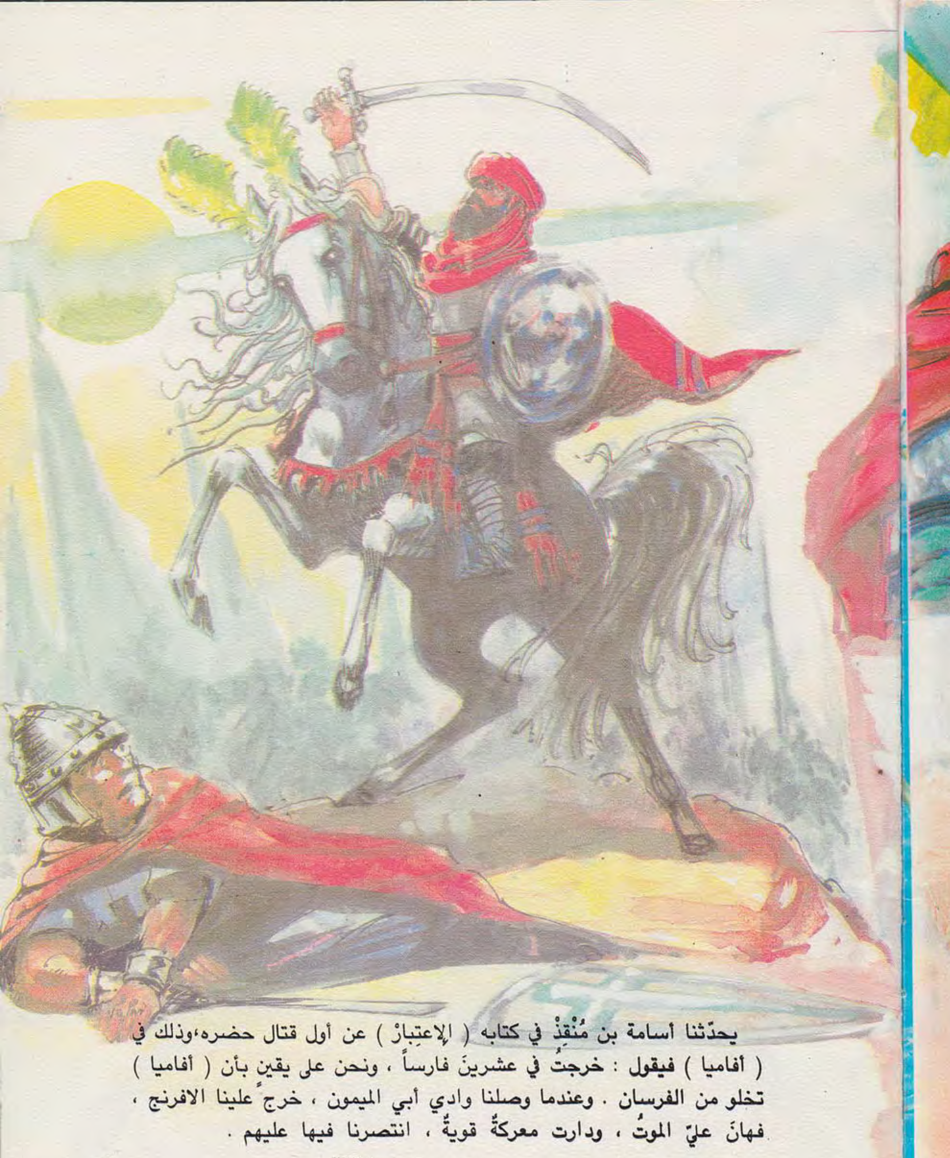
وأجابه أسامة بفرحٍ غامر(لكَ أمانةٌ في عُنقي ياعمّي أن أدافع عن (شيزر) إلى آخر يوم في حياتي) .

في تلك الأيام ، كانَ الغُزاةُ الصليبيون قد احتلّوا بعضَ الأماكن العربية في سوريا ولبنان وفلسطين . فأقاموا القِلاعَ والحصونَ التي أخذوا يشنّونَ منها الغارات على بقيّةِ المدن العربية-ومن بين هذه الحصون (حصن أفامْيا) القريب من حماة وحِمْصْ وشيزر .

خرجَ القائدُ الافرنجي (روجارْ) على رأس جيش من أنْطاكيَة (١) ، وقصدَ شيزر في محاولة جديدة لاحتلالها بعد ما فشلَ في هجماتهِ السابقة ...

دارت معركةٌ حاميةٌ قُتِلَ فيها (روجار) وعدد كبيرٌ من جيشه ، فهربَ الباقون ، ثمَّ أصدر الأمير (سُلطان) الأمر بأن يسير أسامة إلى (أفاميا) لمهاجمتها ، بعد أن وصلت أخبار انضمام فرسانها إلى (روجار) في عدوانه على شيزر ..

(١) مدينة سورية وميناء يقع على شاطىء البحر الابيض المتوسط كانت قلعة صليبية لها سور عظيم .



يحدّثنا أسامة بن مُنْقِذْ في كتابه (الإعتِبارْ) عن أول قتال حضره،وذلك في (أفاميا) فيقول : خرجتُ في عشرينَ فارساً ، ونحن على يقين بأن (أفاميا) تخلو من الفرسان . وعندما وصلنا وادي أبي الميمون ، خرجَ علينا الافرنج ، فهانَ عليّ الموتُ ، ودارت معركةٌ قويةٌ ، انتصرنا فيها عليهم .

بعد أن وصلت أخبار انتصار أسامة ، خرجت « شيزر » كلّها لاستقباله . كان الامير سلطان يقف وسط قادته ، والى جانبه ولده « ليث الدولة يحيىٰ » وعندما اقترب اسامة من المكان الذي يقف فيه عمّه ، نزل عن فرسه ، فتقدم الامير لاستقباله ، وكذلك ولده ، فرفعه اسامة بين يديه ، واخذ يقبّله .

قال الامير : اسامة .. ماذا فعلت ياابن اخي ؟

أجاب أسامة : مثلما يفعل كلّ بطل في مثل هذا الموقف ياعمّاه ..

رَبَتَ الأمير على كتف أسامة وقال :

ـ لقد كان هذا أوّل يوم قاتلت فيه قتال الأبطال ياأسامة ..

كان الامير سلطان مع قادة السرايا في مجلسه عندما دخل رسول يحمل خبر احتلال الإفرنج مدينة الجسر ..

قال الرسول : قتلوا الناس ، وسبوا ونهبوا وحملوا ماالخذوا الى « افاميا » ..

سارت الدماء في عروق أسامة ، بانتظار ما يقوله عمّه ..

استقبل أسامة أوامر عمّه بطيب خاطر ، ومضى يقود الجيش لتحرير مدينة الجسر ..

كانت المدينة تتعذّب بين ايدي الغزاة وهم يتجولون في أزقّتها مثل الوحوش الهمجية .

رأى أسامة ذلك فأطلق صرخته « يارياح الجنة هبّي » ..

وكان لأسامة ماأراد ، فقتل من الإافرنج عدداً كبيراً ، وألقى القبضَ على آخرين ، في حين انهزم المتبقون ..

خرج أسامة مع عمّه الأمير سلطان في فرسان شيزر لمهاجمة قلعة « كفر طاب » « ١ » وحين كان الجيش بانتظار اوامر الهجوم على عسكر كفر طاب . اذا بالفارس « جمعة النميري » يأتي مسرعا ، فقال : « جاءت خيل أفامية » ..

قال الامير : ياأسامة ، تقف انت مقابل عسكر كفر طاب ، وأسيرأنا بالجيش القى خيل أفامية ..

اختفى أسامة مع عشرة فرسان بين أشجار الزيتون ، وأمر بان يخرج بين وقت واخر ثلاثة فرسان ، ثم يعودون ليختفوا لكي يوهم الإافرنج بكثرة عدد فرسانه . وظل كذلك ، لايجرؤ أحد من الافرنج على مهاجمتهم حتى عاد عمّه وانهزم الافرنج الذين جاءوا من افامية ،فهجموا على عسكر كفر طاب ، وقتلوا منهم العشرات وعادوا منتصرين الى شيزر ..

(١) قلعة صليبية لاتبعد عن شيزر وتقع الى الشرق منها .





في صبيحة أحد الأيام قبل شروق الشمس ، جاء عشرة فرسان من الإفرنج الى أحد أبواب شيزر قبل أن يفتح . توقفوا واخذوا ينظرون من فتحةٍ بالباب ، فأبصروا حارساً ..

قالوا للحارس : ماآسم هذه المدينة ؟

فأجاب الحارس : شيزر

ورموه بنشاب من خلال فتحة الباب ، ورجعوا وخيلهم تطير بهم ..

ركب الامير سلطان فرسه ، ومعه أسامة ، يلحق بهم عدد من فرسان شيزر ..

فقال أسامة : هل يأمر عمّي بأن أذهب بالفرسان واتبع الإفرنج واقاتلهم ؟

أجاب الامير سلطان : لاياأسامة ، لايوجد افرنجي في الشام لايعرف شيزر ، هذه مكيدة ..

وأمر الأمير سلطان اثنين من الفرسان أن يذهبا الى تلّ الملح خلف نهر العاصي ، ليعرفا حقيقة الإفرنج .

عندما وصل الفارسان الى « تلّ الملح » خرج عليهما عسكر انطاكية ، فأسرعا بالعودة ، والإفرنج يلاحقونهما ، بينما الأمير سلطان وأسامة في مكانهما ، يتربصان بخيل الافرنج ..

دارت المعركة قويةً ، وأشرفت على الانتهاء ، فقال الفارس البطل « جمعة النّميريّ » : انظروا ماذا سأفعل بمن بقي منهم » ..

وقال أسامة : ليس هذا إنصافا ، نهجم عليهم أنا وأنت .

وهجم الاثنان على الافرنج ، وفعلا مالايقدر عليه اثنان وحدهما ،

تمضي الأعوام ، واسامة يتنقّل من معركةٍ الى اخرى ، صار آسمه فوق كلّ لسانٍ في شيزر ، حتى ذاع صيته بين الأعداء كذلك ..

خرجت شيزر كلّها في يوم عرسه ، وكان عمّه الامير سلطان أوّل المحتفلين ، يجلس الى جانب اسامة واخيه مرشد ، بينما الخيول المزركشة تمر من امامهم إبتهاجا بالمناسبة السعيدة ..



كان القائد الافرنجي « دنكري » قد بعث بعض جواسيسه الى شيزر ليجلبوا له الأخبار .

وعندما وصله خبر احتفالات شيزر بعرس فارسها أسامة بن منقذ ، أسرع يجهّز جيشه للإغارة عليها ، والناس في غفلةٍ من أمرهم ..

وتحوّل العرس الى مأتم فقتل دنكري من قتل ، وسبى من سبى ، ومضى عائدا الى أنطاكية ..

خرج أسامة على راس جيش لملاحقة دنكري وعندما أطلّ على نهر العاصي . وجد أن عسكر انطاكية قد اقاموا خيامهم قرب النهر ..

فسارع بالاغارة عليهم ، وعيناه ترعيان ابن عمّه يحيى بعد أن رآه يحمل على الافرنج. رآهم يفتحون له طريقا وسطهم، فاذا فارس افرنجي يطعنه ويرميه ويطعن حصانه الاحمر ، حمل اسامة عليهم بكلّ بأسه فحرّر ابن عمّه ، ورسم بذلك نهايةً لمعركةٍ حرّر فيها جميع الأسرى وانتقم من دنكري وجيشه أقوى انتقام ..

عندما توفّي والد أسامة ، حزن عليه حزناً شديداً ، فقد كان بالنسبة اليه صديقاً واخاً ومعلماً . كان يرى في أبيه ، صورة الفارس العربي التي يتمناها كلّ شجاع ، فلم يوقفه كبر السن عن خوض المعارك ضد الغزاة ، وحياته كلّها وهبها من أجل شيزر ..

كان آخر مانطق به والده ، وصيّة بالاستمرار بالدفاع عن شيزر وكلّ ارض العروبة لتحريرها من الغزاة المحتلين .

اخذت حياة أسامة في شيزر تتبدل ، خصوصا بعد أن دخل الحاسدون بينه وبين عمّه الأمير سلطان ، الذي اخذ ينظر بعين الشك الى سطوع نجم اسامة بين الفرسان .. اما هؤلاء الحاسدون ، فقد صوّروا لعمّه أن أسامة يخطط لكي يسرق الامارة منه ، وسرعان ماقرر طرده من شيزر فاختار الرّحيل الى دمشق وأميرها ..



الوداع ياشيزر

مثل كلّ إنسان يُحبُّ وطنه،انهمرت الدموع من عيني أسامة وهو يبتعد عن شيزر . كان كلما عبر مسافةً قصيرة ، أوقف فرسه ، ثمَّ أخذ يلتفت الى الخلف ، بينما حنينه يكبر ، لكنَّ شيئاً واحداً كان يخفّف من آلام الفراق ، انه ذاهبٌ الى مدينة عربيةٍ وارضٍ هي أرضه ..

تهيأت لأسامة بن منقذ في دمشق الحياة التي نذر نفسه من أجلها.فها هو أميرها معين الدين أَنُرْ يخوض معارك متواصلةً ضدّ الإفرنج . وأسامة أصبح في جيشه قائداً من خيرةِ القادة ..

توطّدت علاقته بمعين الدين ، وأنشد فيه شعراً منه :

معين الدين كم طوقَ منٍّ ـ بجيدي مثل أطواق الحمام
يُعبّدُني لك الإحسان طوعاً ـ وفي الإحسان رقٌّ للكرام

ظلّ أسامة بن منقذ في دمشق ثماني سنوات ..

لم يتأخر في غضونها يوما عن معارك معين الدين ..

بل وصل الامر به حدّ قيادة عدّة هجمات على قلاع الصليبيين وحصونهم في بعض مناطق فلسطين .. وسأل أسامة نفسه : لماذا تحارب ياأسامة ؟



كانَ القرنُ السادسُ الهجري (الثاني عشر الميلادي) الذي عاش فيه أسامة ، يزدحمُ بالمعاركِ بين العرب والغزاةِ الصليبيين . وقد جاء هؤلاء من أوربا ، تدفعهم أحلامُهم المريضةُ لاحتلال الأرض العربية ، وإذلال إنسانها . فأقاموا القِلاعَ والحصونَ هنا وهناك ، ومنها أخذوا يشنّون الهجماتِ لاحتلال أراضٍ أُخر جديدة .

وعندما كان أسامة في الرابعة من عمره ، سقطت مدينةُ القدس في أيدي المحتلين . حدّثه أبوه مرشد عنها ، وكم سرّه أن يراها في يومٍ محرّرةً ، ترفرفُ فوقها راياتُ العروبة .

لهذا كان أسامة يحاربُ ، فالأرضُ العربية كلّها عنده مثل شيزر ، يُحبُّها مثلما يحبُّ مدينته

لم يزل أسامة مُقيماً في دمشق ، إلى أن دخل الحاسدون بينه وبين (معين الدين أُنُر) . وكان من بين هؤلاء (مُجير الدين أبَقْ بن مُحمّدْ بن بوري بن طُغُدْ كين أتابك) ، الذي كان يُخفي ولاءه للإفرنج .

قال مجير الدين : مولاي الأمير معين الدين . إن أسامة بن منقذ يجمعُ حوله القادةَ ، وقد أصبح له من بينهم أصدقاء كثيرون .

فسأله معين الدين : وما الضررُ في ذلك يامجير الدين ؟

أجاب مجير الدين : أخشى يامولاي انه يخطط لشيء نكرهه وتكرهه .

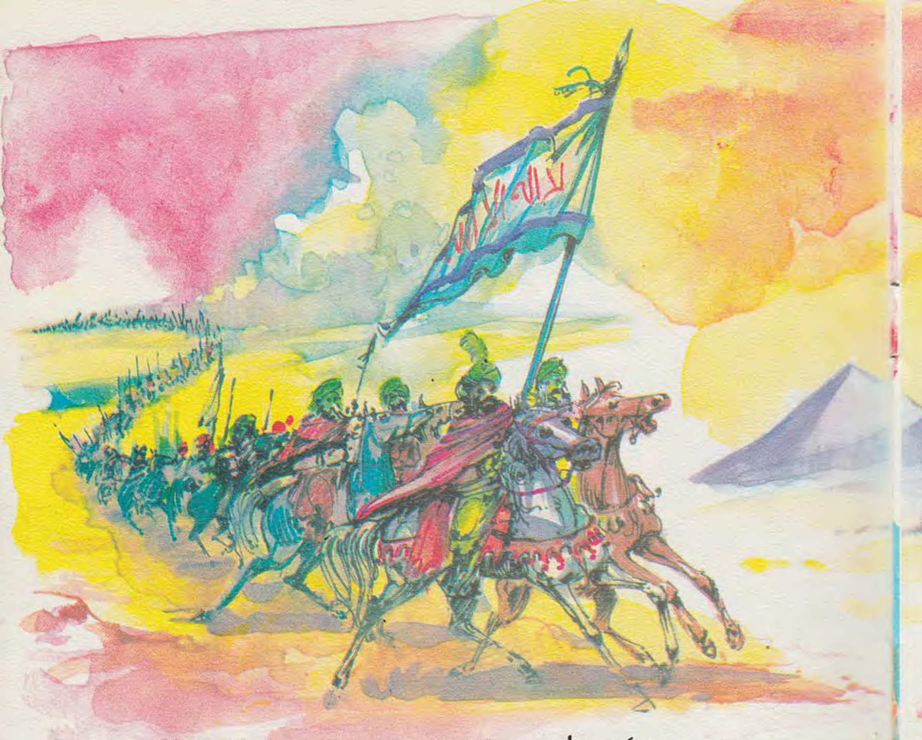
عندئذ قررّ معينُ الدين طردَ أسامة من دمشق ، فاختارَ الرحيلَ إلى القاهرة .

أسامة في مصر

وصلَ أسامة إلى القاهرة في عام (٥٣٩ هـ) فاستقبله **الخليفةُ الفاطميُّ** الحافظ لدين الله أحسنَ استقبال . أكرمه وأجْزَلَ في عطائه له ، **وسرعان** ماذاعَ صيتُه في مصر ، مثلما ذاعَ من قَبْلُ في شيزر ودمشق .

لم تتوقفْ مكائدُ مجير الدين لأسامة بن منقذ . **فهاهو من دون علمِ** معين الدين أُنُرْ ، يقومُ بطردِ أقارب أسامة وأهله من دمشق ، **بعد أن اتفق** مع الإفرنج ، فيقطعون عليهم الطريقَ ويقتادونهم أسرى . **وعندما وصلَ** الخبرُ الى أسامة ، غضب غضباً شديداً ، وقال قصيدته المشهورة في مخاطبة معين الدين أُنُرْ ومنها هذه الأبيات :

هبنا جنينا ذنوباً لايكفرها
- عذرٌ فماذا جنى الاطفال والحرم
ألقيتهم في يد الإفرنج متّبعاً
- رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم



مكثَ أسامةُ في مصر إلى جانب الملك الظافربأمر الله الذي تسلّم الحكمَ بعد وفاةِ أبيه ، يشاركه في المعاركَ ضدّ الافرنج . ثم أمره بالتجهز للمسير الى الملك نور الدين محمود الذي تولّى حكمَ دمشق بعد معين الدين ، ليخبره بضرورةِ منازلة الإفرنج في مدينة طبريا الفلسطينية .

قالَ أسامة : يامولاي ، فان اعتذر ، أو كان له من الأشغال مايعوقه ، أيّ شيء تأمرني ؟

فاجابَ الملك الظافر : إن نزل على طبريا ، فاعطه المال الذي معك ، وإن كان له مانعٌ ، فاجمع من تَقْدِر عليهم من الجند ، واذهب إلى عسقلان وأقم فيها لقتالِ الافرنج .

جّهز أسامة مايحتاجه للرحيل ، ومضتِ القافلةُ تقطعُ الصحراء الى الشام . عندما اقترب من واحةِ الجَفْر (١) قالَ له الدليلُ : (هذا مكانٌ لايكاد يخلو من الإفرنج) .

---

(١) واحة بين مصر وفلسطين

فأمر أسامة الدليلَ أن يسبقهم على فرسهِ الى الجَفْر ، ومالبثَ أن عاد ، والفرسُ تطير به ، وقال : (الافرنج على الجفر) .

أمر أسامة الجميعَ بالتوقّف ، وانتدبَ ستة فرسان ، وتقدم معهم إلى الجفر . لم يكن هناك أحدٌ ، فقال الدليل (لعلّهم كانوا من البلاد وعندما رأوني ابتعدوا) . عندئذ أصدر أسامة الأمرَ بأن يواصلَ الجميعُ المسير ، حتى وصلوا إلى الجفر ، حيث المياه والعشب والشجر .

قامَ من بين العُشب رجلٌ عليه ثوبٌ أسود ، فأمسكَ بهِ أحدُ فرسان أسامة ، وتفرّق الباقون ، فجاءوا برجلٍ آخر وأمرأتين وصبيان .

تقدمت امرأة وأمسكت بثوبِ أسامةً وقالت : (يا شيخ ، أنا في حسبك) .

فقال أسامة : أنتِ آمنة .. مابك ؟

وأجابت : قد أخذَ أصحابُكَ لي ثوباً وناهِقاً ونابحاً وخرزة (١) .

وأمر أسامة بان يَرُدّ فرسانه ماأخذوه ، وأعطى المرأةَ ومَن كانوا معها من الزّاد الذي كان معهم ، وقال : (لاتقيموا هنا لئلا يَسبيكم الافرنج) .

التقى أسامة في دمشق بالملكِ العادل نور الدين محمود ، وأخبره بما جاء به .

فقال نور الدين : ياأسامة ، أعدائي كثيرون في الداخل ، وأخشى الهزيمة ان خرجت لقتال الافرنج الآن .

وقال أسامة : أرجو أن تأذن لي بتجهيز عددٍ من الفرسان ، لأذهب بهم لمحاربة الإفرنج من عسقلان .

وافقَ الملكُ نور الدين محمود ، وأخذ أسامة معه ٨٦٠ فارساً ، وسارَ بهم من بين قِلاع الافرنج وحصونهم ، يستريحون على صوت البوق ، ويرحلون ايضاً ، من دون أن يجرؤ أحدٌ من الإفرنج على مهاجمتهم .

كانَ (ناصرُ الدولةِ ياقوتْ) والي عسقلان (٢) في استقبالِ أسامة . ولم تمض على وجود أسامة سوى أيامٍ قليلة ، حتى جاء الإفرنجُ لمهاجمةِ عسقلان . طلبَ أسامة من المشاة أن يرجعوا الى سور عسقلان ، ليحتموا به ، قائلا : (فان نُصِرْنا عليهم فأنتم تلحقونا ، وان نُصِروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم) .

---

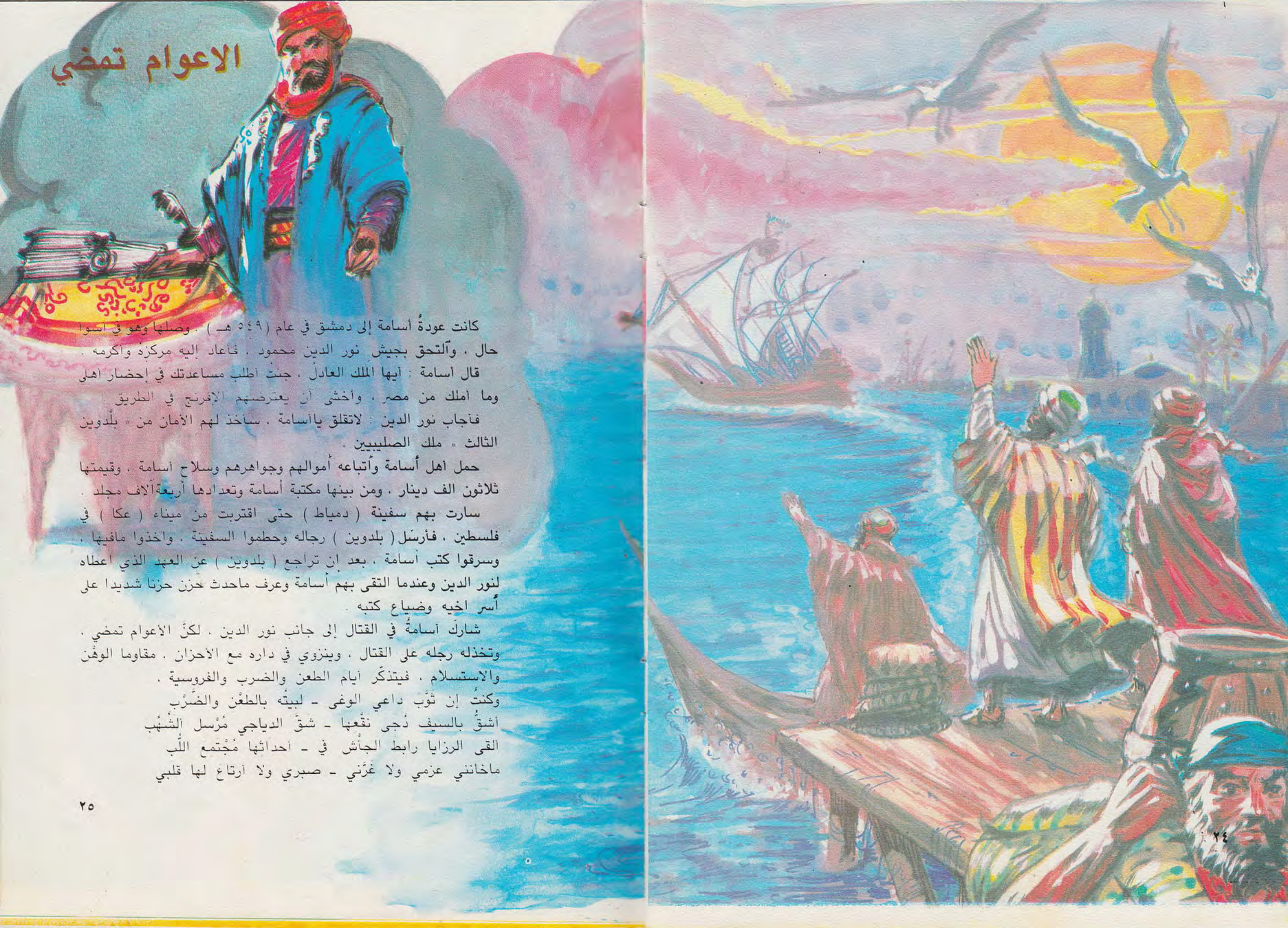
(١) الناهق : الحمار
النابح : الكلب
الخرزة : معدن شبيه بالكهرب
(٢) مدينة عربية كنعانية على ساحل فلسطين الجنوبي كانت موقعا عسكريا في الحروب الصليبية .



ومضى أسامة لمنازلة الافرنج ، وهجم عليهم قبل أن يشدّوا خيامهم ، فرموها ، وانهزموا . أما المشاة ، فانهم سرعان ماتركوا السور ، لمطاردة الافرنج ، من دون علم أسامة ، وكان عددهم قليلاً ، فاستدار اليهم الافرنج ، وهجموا عليهم ، وقتلوا منهم ، فعادوا خاسرين يقولون : (كان ابن مُنْقذْ أخْبر منا ، قال لنا ارجعوا مافعلنا ، حتى انهز منا وافتضحنا) .

يقول أسامة في كتابه (الاعتبار) انه اقام في عسقلان أربعة شهور ، ظل في غضونها يقاتلُ الافرنج ، الى أن جاءه كتاب الملك الظافر يستدعيه فيه للعودة الى مصر .

وجد أسامة بعد عودته ، أن مصرَ تعيشُ خلافاتٍ حادّةً ، لم يشأ أن يكون طَرَفاً فيها ، فقرّر العودةَ إلى دمشق وكان عليها الملك نور الدين محمود .



الاعوام تمضي

كانت عودةُ أسامة إلى دمشق في عام (٥٤٩ هـ) . وصلها وهو في اسوأ حال ، وآلتحق بجيش نور الدين محمود . فاعاد إليه مركزهُ واكرمه .

قال أسامة : أيها الملك العادل . جئت اطلب مساعدتك في إحضار أهلي وما املك من مصر ، وأخشى أن يعترضهم الافرنج في الطريق .

فاجاب نور الدين : لاتقلق ياأسامة . سآخذ لهم الأمان من « بلْدوين الثالث » ملك الصليبيين .

حمل اهل أسامة وأتباعه أموالهم وجواهرهم وسلاح أسامة . وقيمتها ثلاثون الف دينار . ومن بينها مكتبة أسامة وتعدادها أربعةآلاف مجلد .

سارت بهم سفينة (دمياط) حتى اقتربت من ميناء (عكا) في فلسطين . فأرسَل (بلدوين) رجاله وحطموا السفينة . واخذوا مافيها . وسرقوا كتب أسامة . بعد إن تراجع (بلدوين) عن العهد الذي اعطاه لنور الدين وعندما التقى بهم أسامة وعرف ماحدث حزن حزنا شديدا على أسر اخيه وضياع كتبه .

شاركَ أسامةُ في القتال إلى جانب نور الدين . لكنَّ الأعوام تمضي . وتخذله رجله على القتال . وينزوي في داره مع الأحزان . مقاوما الوهْن والاستسلام . فيتذكَّر أيام الطعن والضرب والفروسية .

وكنتُ إن ثوَّب داعي الوغى - لبيتُه بالطعْن والضَّرْب
أشقُّ بالسيف دُجى نقْعها - شقَّ الدياجي مُرْسل الشُهُب
ألقى الرزايا رابط الجأْش في - أحداثها مُجْتمع اللُب
ماخانني عزمي ولا غرَّني - صبري ولا ارتاع لها قلبي

الزلزال



يفيدُنا كتاب (عيون التواريخ) لمحمد بن شاكر الكُتبيّ ان عام (٥٥٢ هـ) ، شهد زلازلَ عظيمةً في حَلب وحماة وشيزر ، وهلكَ خلقٌ كثير ، ولم يبقَ أحدٌ في شيزر ، فقال أسامه شعراً يَرثي به أهلَه وأقاربه :

لم يترك الدهرُ من بعد فقدهم ـ قلباً أُجَشِّمُهُ صبراً وسلِواناً
هذي قصورهم أمست قبورهم ـ كذاك كانوا بها من قبل سكانا
وَيْحَ الزلازل أفنت معشري واذا ـ ذكرتهم خلتني في القوم سكرانا
بنو أبي وبنو عمي دمي دمهم ـ وإن أروني مناواة وشنآنا

تجوّل أسامة تملأه الأحزانُ في كثيرٍ من البلدان ، ثم استقرَّ به المقامُ في (حصن كيفا) (١) . اختاره لجمال مناظره ، ولكثرةِ المكتبات فيه .

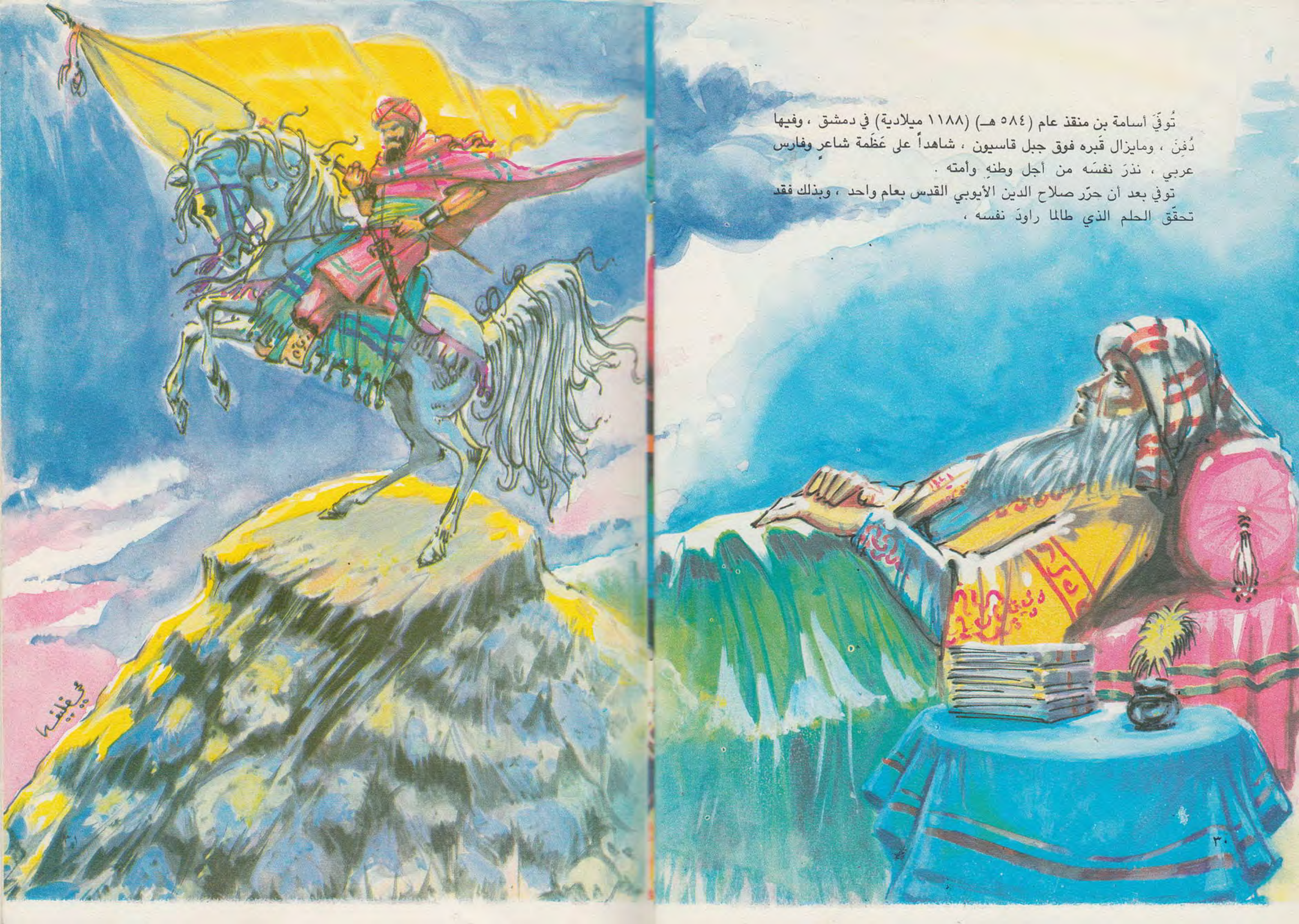
في حُصن كيفا دَبّ إليه الضَعْفُ ، وارتعشت منه اليد ، ومضت به السنون . وعكفَ على البحث والدرس والتأليف ، وفي غضون احدى عشرة سنة أمضاها هناك ، كتب كتباً قيمة ، وبقي الى أن استدعاه الملك الناصر صلاح الدين ، وهو في التسعين من العمر ، وبالغَ في إكرامهِ واحترامه .

(١) يقع على نهر دجلة شمال بلدة (نصيبين)

الإعتبار

انكبَّ أسامة بن منقذ على تأليف كتابهِ « الإعْتِبارْ » . ويُعَدّ واحداً من أفضلِ كتب السيرة عند العرب ، ان لم يكن أفضلها وأوّلها . وفيه خلاصةُ تجربةِ شاعر فارس ، ظلّ طيلة حياته يحاربُ الافرنج الغزاة ، لتحرير الأرض العربية .

ولأسامة ديوانُ شعر يتكوّن من جزءين ، وكتب أخرى منها « كتاب المنازل والديار » و « كتاب البديع » و « كتاب لباب الألباب » .


تُوفِّيَ أسامة بن منقذ عام (٥٨٤ هـ) (١١٨٨ ميلادية) في دمشق ، وفيها دُفِنَ ، ومايزال قَبره فوق جبل قاسيون ، شاهداً على عَظَمة شاعرٍ وفارس عربي ، نذرَ نفسَه من أجل وطنِهِ وأمته .
توفي بعد أن حرّر صلاح الدين الأيوبي القدس بعام واحد ، وبذلك فقد تحقَّق الحلم الذي طالما راودَ نفسه ،



الجمهورية العراقية - بغداد - وزارة الثقافة والاعلام - دار ثقافة الاطفال
الصالحية - مكتب بريد (٨) شباط

Ministry of Cultur and Information — Children's Culture House
P.O. Box: 14176 / 8041
Tel: 5383171 / 5383181
TLX: 2606
THAKAFA - IK
BAGHDAD - IRAQ

المدير العام رئيس مجلس الادارة : فاروق سلوم
سكرتير التحرير: شفيق مهدي

هاتف ٥٣٨٣١٧١ / ٥٣٨٣١٨١
تلكس : ٢٦٠٦ ثقافة / العراق

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٨٣٠ ببغداد لعام ١٩٨٧
توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان
ثمن النسخة خارج العراق ٢٥٠ فلساً

دار الحرية للطباعة

